

الدرس العاشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إن الحمد لله نحمده ونستعينه وتستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .
قال الإمام رحمة الله تعالى وغفر له وللشارح والسامعين :

باب ما جاء أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة

هذا مروي من حديث أنس ومن مراسيل الحسن . وذكر ابن وضاح عن أيوب قال : كان عندنا رجل يرى رأياً فتركه ، فأتيت محمد ابن سيرين فقلت : أشعرت أن فلاناً ترك رأيه ؟ قال : انظر إلى ماذا يتحول !! إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله ((يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون إليه)) . وسئل أحمد ابن حنبل عن معنى هذا الحديث فقال : لا يوفق للتوبة .

قال رحمة الله ((باب ما جاء أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) ؛ هذا الباب هو بمثابة التفرع للباب الذي قبله ؛ في الباب الذي قبله قال : «باب ما جاء أن البدعة أشد من الكبائر» ، والبدعة أشد من الكبائر لوجوه عديدة ؛ منها ما ثبت في الحديث ((أن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) ، فهذا الباب بمثابة التفرع للباب الذي قبله في بيان خطورة البدعة وأنها أعظم من الكبيرة.

وقوله ((احتجز التوبة على صاحب البدعة)) أي: يُحال بينه وبينها ، كما قال أهل العلم أي لا يوفق للتوبة .
والسبب في ذلك :

■ أنه لا يرى نفسه مخطئاً أو مذنباً بل يرى نفسه على هدى وعلى حقٍّ وعلى صواب، بخلاف صاحب الكبيرة ، صاحب الكبيرة يرى أنه مخطئ وأنه على ذنب ولهذا تكون التوبة قريبة منه ؛ لأن أول التوبة العلم بالذنب والعلم بالخطأ، وصاحب البدعة علمه أنه على صواب وأنه على هدى ؛ ولهذا لا يوفق للتوبة لأنه يرى أنه على الحق .

■ وأيضاً من جهة أخرى ؛ أن قلبه أشرب البدعة ، وقد مر معنا قريباً قول النبي ﷺ : ((إنَّه سيكون في أمّتي أقوامٌ تجارى بهم تلك الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه ، لا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ))؛ وهذا معناه تمكن الهوى والبدعة منهم وتغلغلها فيهم وأن قلوبهم أشربت البدعة ، فمثل هؤلاء لا يوفقون للتوبة .
وهذا معنى قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) .

والتوبة ما هي ؟ التوبة : ندمٌ على الذنب ، وإقلاعٌ عنه ، وعزمٌ على عدم العودة إليه ؛ "ندم على الذنب" لكن المبتدع ما الذي يرى نفسه عليه ؟ هل يرى نفسه على ذنب أو على معصية ؟ ليس عنده شيء يُندم عليه ؛ بل إنه يسأل الله أن يميتته على هذا العمل وأن يلقي الله به ويُعَدّه في صالح عمله ، فليس عنده ندم على عمله فضلاً عن أن يكون منه إقلاع وعزم ، بخلاف العاصي ؛ العاصي يرد عليه الندم مرات ، وتارة يقلع ويعود تغلبه نفسه ، ويعزم على الإقلاع ويرجع ، وهكذا وهو والذنب سجّال ، أما صاحب البدعة لا يندم ، وعلى ماذا يندم !! وهو يرى أن هذا هو الهدى وهذا هو الحق ، وهو دين الله ﷻ .

قال: ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) ؛ هل معنى ذلك أن صاحب البدعة لا يتوب ؟ وهل أيضاً معنى ذلك أن صاحب البدعة لو تاب لا يُقبل منه ؟ الجواب لا ؛ ليس هذا معنى الحديث ؛ وإنما معنى الحديث : بيان خطورة البدعة على صاحبها وتغلغلها من نفسه وكونه يرى أنها الحق ؛ فمثل هذا لا يوفق للتوبة ، وقد يمن الله ﷻ على بعض المبتدعة أو كثير منهم فيتبصرون الحق ويعرفون الهدى ويرجعون إليه ، ومن يقرأ التاريخ يجد أن عدداً من المبتدعة وبعضهم كانوا رؤوساً في البدعة هدامهم الله ﷻ إلى الحق وبصّرهم به وتابوا وندموا مما كانوا عليه من خرافة أو بدعة أو ضلالات المتكلمين ، تاب عدد منهم ورجعوا عن الباطل الذي كانوا عليه وأعلنوا توبتهم صريحةً إما في كتاب أو في مجلس أو في خطبة جمعة أو نحو ذلك .

فقد يوفق ؛ يعلم الله ﷻ منه صدقاً ونصحاً وحرصاً ، وقد يكون يلهج بالدعاء إلى الله ﷻ أن يهديه فيُهدى إلى صراط الله المستقيم ، لكن الغالب أن من أشرب البدعة لا يتحول منها إلا إلى بدعة أخرى ، ولا ينتقل من عقيدة فاسدة إلى إلا عقيدة أخرى مثلها في الفساد أو أشد ، ولهذا كان السلف قديماً يذمّون أهل البدع بالتلون والتنقل من مذهب إلى آخر ومن بدعة إلى بدعة ، كانوا يذمّونهم بهذا وكانوا يقولون في ذم البدع : «إياكم والتلون في

الدين» لأن هذا حال أهل البدع يتلونون ويتنقلون من دين إلى آخر ومن عقيدة إلى عقيدة ليس عندهم ثبات . وقد قال بعض السلف : «مَنْ جَعَلَ دِينَهُ غُرْضَةً لِلْخُصُومَاتِ أَكْثَرَ التَّنَقُّلِ» أي : من دين إلى دين ومن مذهب إلى مذهب ومن عقيدة على عقيدة . وهذا التنقل في البدع وليد الضلال ، أما من كان على حق وعلمه ولزمه لا ينتقل عنه بإذن الله ﷻ ولا يتحول منه إلى غيره ولا سيما إذا اجتمع له في طريق الحق صلاح الباطن وصلاح الظاهر . ولما ذكر النبي عليه الصلاة والسلام تحوّل بعض الناس من الهدى إلى الضلال أشار إلى شيء من فساد الباطل ، قال : ((إِنَّ أَحَدَكُمْ لَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْذُو لِلنَّاسِ - كما في حديث سهل - حَتَّى مَا يَكُونُ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا ذِرَاعٌ فَيَسْبِقُ عَلَيْهِ الْكِتَابُ فَيَعْمَلُ بِعَمَلِ أَهْلِ النَّارِ فَيَدْخُلُهَا)). .

وقد نقل ابن القيم رحمه الله في كتابه «الفوائد» عن بعض أئمة العلم أنه لا يُعرف من كان على عقيدة صحيحة عرفها وفهمها وعُمر قلبه بها ثم يتحول منها إلى عقيدة باطلة ؛ هذا التحول لا يكون إلا من إنسانٍ عمل بظاهر الإسلام ولم يُعمر باطنه بحقائق الإيمان ، أما الذي دخل الإيمان في قلبه وذاق طعمه وعرف لذته وعرف قدره ومكانته ثم يتحول! فهذا لا يُعرف ، كما نقل ذلك ابن القيم وكما يدل ذلك الأحاديث عن رسول الله صلوات الله وسلم عليه .

والعقيدة الصحيحة تقوّي صلة العبد بالله ﷻ صدقاً معه ﷻ ولجوءاً إليه ودعاءً وتذلاً وإيماناً بقضائه وقدره ﷻ وكل ذلك من أسباب الثبات على الحق والهدى ، وكذلك العقيدة الصحيحة تدعو صاحبها إلى صالح العمل وسديد القول وحسن الخلق ؛ وكل ذلك من أسباب الثبات على الحق والهدى . بينما البدعة تحوّل بين صاحبها وبين الخير والحق والهدى وتشغّل صاحبها بأنواع من الضلالات التي تُبعده من الله ﷻ . فكل هذا يبين لنا معنى هذا الحديث والمراد به ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)). .

وتأمل قوله ((صاحب البدعة)) ؛ هذا فيه إشارة إلى ملازمته لها وصحبته لها ومحافظته عليها ودفاعه عنها ، أما الشخص الذي يقع في زلة أو في خطأ أو يقع في بدعة وقلبه مستوحش منها هذا قريب من التوبة ليس ببعيد عنها، لكن الذي أشرب قلبه البدعة وتجارته به الأهواء كما يتجارى الكلب بصاحبه فهذا على خطر عظيم من هذا الوعيد الذي جاء في الحديث .

قال المصنف : ((هذا مروي -أي عن النبي ﷺ- من حديث أنس)) أي: بن مالك ﷺ ، والحديث ثابت عن رسول الله ﷺ ، ولفظه في بعض مصادره: ((إن الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة)) أي : يحول الله ﷻ بينه وبينها ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤] ، وقلوب العباد بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء كما صح بذلك الحديث عن رسول الله ﷺ .

قال ((ومن مراسيل الحسن)) أي البصري رحمه الله ؛ والمرسل من أقسام الضعيف لكنه يصلح شاهداً لحديث أنس ابن مالك. ((ومن مراسيل الحسن)) بمعنى هذا الحديث ، جاء عن الحسن مراسلاً بمعنى حديث أنس بن

قال: ((وذكر ابن وضاح عن أيوب)) ؛ ابن وضاح من أئمة المالكية وله كتاب مطبوع بعنوان «البدع والنهي عنها» وهو كتاب قيم ونافع ، في هذا الكتاب نقل ابن وضاح عن أيوب السخيتاني : ((قال : كان عندنا رجل يرى رأياً فتركه)) ؛ يرى رأياً : أي كان على بدعة وعلى ضلالة ، وتعبير السلف رحمهم الله عن البدعة بالرأي لأن هذا هو ما بُنيت عليه البدعة . البدعة تُبنى على الآراء وعلى العقول وعلى التخرصات ، فكان يرى رأياً : أي ابتدع بدعةً مبنيةً على الرأي .

((كان يرى رأياً فتركه)) : يعني رجع عن ذلك الرأي الذي كان عليه ، لكن إلى أين ؟ مر معنا قريباً أن من صفات أهل البدع كثرة التنقل والتلون؛ يرى رأياً ثم يتركه إلى رأي آخر وإلى بدعة أخرى ، تنقل في أودية الضلال . قال: ((فأتيت محمد ابن سيرين)) أي أيوب السخيتاني ذهب إلى محمد ابن سيرين .

((فقلت أشعرت أن فلانا ترك رأيه)) يعني هل بلغك أن فلان ترك رأيه ؟ يعني ترك البدعة التي كان عليها هل شعرت بذلك ؟ هل بلغك شيء من ذلك ؟

((قال - أي محمد ابن سيرين - انظر إلى ماذا يتحول)) يعني هو ترك بدعةً ولكن إلى ماذا تحول انظر!! ستجده تحول إلى بدعة أخرى ، وهذا الذي قاله محمد ابن سيرين علمه على ضوء ما دلت عليه النصوص ، وعلى ضوء أيضاً حال أهل البدع حيث عُرفوا بكثرة التنقل من بدعة إلى بدعة وضلالة إلى ضلالة . ((قال انظر إلى ماذا يتحول)) يعني ما هي العقيدة الجديدة التي ذهب إليها أو البدعة الأخرى التي تحول إليها ؟

((إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله)) ؛ ما هو آخر الحديث؟ ((يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون إليه))؛ هكذا قال الرسول ﷺ ((ثم لا يعودون إليه)) ؛ يمرق ثم لا يعود . قوله ((ثم لا يعودون)) هي أشد من قوله ((يمرقون)) لأن الذي يمرق ويعود أمره أهون من الذي يمرق ولا يعود ، فآخر الحديث أشد ، فهو لم يقتصر في وصفه لهم بقوله ((يمرقون من الدين)) بل زاد على ذلك أمر أشد وهو عدم العودة قال: ((يمرقون من الدين ثم لا يعودون إليه)) ؛ ولهذا قال ابن سيرين : «آخر الحديث أشد عليهم من أوله» وهو إخبار النبي عليه الصلاة والسلام أنه لا يعود .

وهنا يتساءل متسائل : لماذا إذا مرق من الدين إلى البدعة والضلالة وأشرب قلبه البدعة لا يعود؟ عرفنا ذلك فيما سبق ؛ لأن البدعة التي أشربها قلبه قد أحبها ومال قلبه إليها وأعتنقها ورأى أنها هي الحق والصواب فلا يعدل عنها ولا يرجع إلى الحق والهدى ، وإذا كان اكتسب بهذه البدعة زعامةً أو رئاسةً أو حظوظاً عظيمة من الدنيا فهذه أيضاً تزيد تمسكاً بالباطل الذي عليه ، بل جاء في الحديث في شأن من يطلب لنفسه زعامة كيفما كان ؛ أن الرجل يقرأ القرآن ثم يقول أنه لم يجد أحداً اتبعه فيفتح باب ضلالةٍ حتى يجد أتباعاً ، جاء حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام في سنن أبي داود وغيره بهذا المعنى قال «مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَفْتَحَ لَهُمْ بَابَ

ضلالة» يريد زعامة فقرأ القرآن فلم يجد أتباعاً له ثم يقول «مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَفْتَحَ لَهُمْ بَابَ ضَلَالَةٍ» ، جاء هذا الأثر عن أحد الصحابة: «يُوشِكُ قَائِلٌ أَنْ يَقُولَ : مَا لِلنَّاسِ لَا يَتَّبِعُونِي وَقَدْ قَرَأْتُ الْقُرْآنَ ، مَا هُمْ بِمُتَّبِعِيَّ حَتَّى أَتَّبِعَ لَهُمْ غَيْرُهُ ، فَإَيَّاكُمْ وَمَا ابْتَدَعَ» ؛ فبعض الناس قد يكون سيره في البدعة لزعامة ولرئاسة ولتسلط على الناس ولإشباع غرائز باطلة ، فمثل هذا لا يوفق للتوبة ويشمله قول النبي عليه الصلاة والسلام ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)).

قال : ((إن آخر الحديث أشد عليهم من أوله ؛ يمرقون من الإسلام ثم لا يعودون)) ؛ هذا الحديث ورد في بدعة الخوارج ، وقد سبقت الإشارة إليه قريباً ، وبدعة الخوارج هي من أشد البدع التي يتعصب لها أصحابها ويستمسك بها أربابها ، وذلك لأنهم يرون في أنفسهم أنهم الوحيدون على وجه الأرض حماة الدين وأنصاره وأن حماية الدين لا تكون إلا بطريقتهم ، فهو لا يرى نفسه فقط على الدين ؛ بل يرى نفسه أنه هو الوحيد الذي يعمل لحمايته ، وأن حماية الدين لا تكون إلا بهذا الطريق الذي سلكه ، فمثل هذا لا يوفق للتوبة ؛ لأنه يرى أنه هو الذي على الدين ويرى أيضاً أنه هو الذي يحمي الدين . وقد كان من طريقة هؤلاء الدعاة إلى عقيدة الخوارج في قديم الزمان وحديثه كان من شأن هؤلاء في بث العقيدة : أول ما يبدوون به مع من يدعونه بقطع صلته بأهل العلم وأهل الحق وأهل الهدى وتزهيده فيهم وانتقاصهم عنده وسبهم حتى يسقطوا من عينه ولا يبقى لهم مكانة في قلبه ، وهذا أيضاً من الحوائل والحجب التي توضع لأمثال هؤلاء لئلا يعودوا إلى الحق والهدى ، لأن قلبه كره أهل العلم ، كره حملة الحق كره أنصار الحق وأعوانه ؛ فإذا حيل بينه وبينهم وملى قلبه كراهية ومقتاً لهم كيف يكون منه سماعٌ لهم فضلاً عن أن يكون منه قبول !! فهو لا يسمع أصلاً لهم كلمة فضلاً عن أن يتقبل حقاً يدعون إليه ، وهذه كلها من الأشياء التي تؤكد معنى الحديث من حيث واقع أصحاب البدع ولا سيما وخاصة الخوارج الذين قال فيهم عليه الصلاة والسلام : ((يمرقون من الدين ثم لا يعودون إليه)).

قال : ((وسئل أحمد بن حنبل عن معنى ذلك)) الإشارة في قوله «ذلك» : أي إلى الحديث الذي هو قول النبي ﷺ ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) ؛ سئل كما في مصادر هذا الأثر عن الإمام أحمد رحمه الله عن معنى ((إن الله احتجز التوبة على صاحب البدعة)) ما المراد به ؟

((فقال : لا يوفق للتوبة)) أي لا يوفقه الله ، والتوفيق بيد الله ، وفي القرآن : ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [هود: ٨٨] ، فالتوفيق بيد الله ﷻ يهدي من يشاء ويضل من يشاء .

((قال : لا يوفق للتوبة)) وهنا أيضاً أمر آخر أشير إليه في عدم توفيق هؤلاء للتوبة وهو : أن هؤلاء زُين لهم سوء عملهم فرأوه حسناً كما قال الله ﷻ : ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنْ لَمْ يَضِلُّ مِنَ الْيُشَاءِ يَهْدِيْهِ مِنَ الْيُشَاءِ﴾ [فاطر: ٨٠] ، زُين له سوء عمله : أصبح عمله في عينه زيناً وحسناً وجميلاً وطيباً فلم يتوب منه

وهو يراه من أحسن الأعمال وأطيبها؟ وكيف يتوب منه وهو يراه عملاً صالحاً!! فالبدعة من مصيبتها على أصحابها أنها تترين لهم وتتجمل ، وأيضاً دعائها يجملونها ويزخرفونها في أعين من يدعونهم إليها ، وهذه أيضاً من الحجب التي تحول بين الإنسان وبين التوبة من البدعة والرجوع إلى الحق ، لأن البدعة تُزَيِّن له وتزين له ويراهها حسنة فيكون ذلك حائلاً وحاجباً بينه وبين أن يتوب إلى الله تبارك وتعالى من بدعته .

وأمر آخر : وهو ما دل عليه قول الله ﷻ ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَاتَّاهُم تَقْوَاهُمْ ﴾ [محمد: ١٧] ؛ اهتدوا: أي ساروا في طريق الهدى ، والهدى: هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهُدَى هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ)) ؛ فمن سار في طريق الهدى الذي هو السنة وأمر السنة على نفسه وسعى في طلبها وجد واجتهد في تحصيلها ولم يجعل في نفسه حائلاً من قبولها ، فمثل هذا يزداد هدىً وصلاً كما قال الله: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَاتَّاهُم تَقْوَاهُمْ ﴾ ، أما الذي لا يعظم السنة ولا يعرف حرمتها ويذكر له الحديث فيرده ويكذبه أو يسعى جاهداً في تحريفه وصرفه عن معناه وعن دلالته وأطره إلى بدعته ؛ فمثل هذا وقع في هذه الحوائل التي تحول بينه وبين التوبة . وهذه الحوائل وضعها أئمة البدع لأتباعهم لتكون حائلاً بينهم وبين التوبة إلى الله ﷻ ، وحتى لا يقبلوا الهدى الذي جاء في كتاب الله وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام؛ فوضعوا طرائق لرد معاني الآيات وطرائق لتكذيب الأحاديث الثابتات عن رسول الله ﷺ تحريفاً للنصوص وتكديباً، فهذا التحريف والتكذيب هو في الحقيقة من الحوائل والحجب التي تحول بين الإنسان وبين الحق والهدى . وعلى كل حال ؛ قول النبي ﷺ ((إِنَّ اللَّهَ احْتَجَزَ التَّوْبَةَ عَلَى صَاحِبِ الْبَدْعَةِ)) معناه : أن البدعة وما يكتنفها تكون حائلاً للقلب عن قبول الحق والرجوع إليه . وليس معنى ذلك - كما قدّمت - أن صاحب البدعة توبته غير ممكنة ، توبة صاحب البدعة ممكنة وواقعة أيضاً ؛ الخوارج الذين ورد فيهم هذا الحديث ((ثم لا يعودون)) لما ناظرهم ابن عباس رضي الله عنهما رجعا منهم أربعة آلاف ، لما ناظرهم في مناظرة مشهودة مشهورة رجعا منهم عدد كبير جداً ، وأيضاً العلماء يشيرون إلى أن الغالب في الرجوع في العوام وفي الأتباع وفي من لم تتغلغل البدع في قلوبهم ، أما الذي أشربت - والعياذ بالله - قلبه بدعة وأظلم قلبه ببدعة فإنه لا يقبل الحق ، ولهذا لما وصل ابن عباس إلى أولئك من أجل المناظرة أراد بعض كبراء هؤلاء أن يقطعوا وأن يحولوا بين الناس وبين التوبة فقالوا محذرين للناس من ابن عباس : «إنه من قريش ، والله ﷻ قال عن قريش ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ [الزخرف: ٥٨] فاحذروه» ، فنزلوا ما وصف الله ﷻ به المشركين في هذا الصحابي الجليل خبر الأمة الذي جاء لدلائلهم على السنة ، فوضعوا حائل . ومثل هذا الكلام قد يخلخل الجاهل ويؤثر فيه .

فالكبراء الذين أشربت قلوبهم البدع الأمر فيهم أعسر وأشد ، وأما الأتباع والجهال والعوام وبسطاء الناس فهؤلاء قرييون من الحق وقرييون من الهدى ، وإذا قيل له كلمة الحق وبُصِّرَ بها ودُلَّ عليها رجعا ، بخلاف الذي هو متمكن

من البدعة ولقّن الحجة ، وكان السلف رحمة الله عليهم يحذّرون من مجالسة أهل البدع يقولون لأن صاحب البدع ملقّن حجته ، فما كانوا يستمعون إليهم لأن لهم شبهات ، والشبهات توحي القلوب وتفسد الأفكار وتُضر بالناس غاية الضرر ، فكانوا يحذّرون من مجالسة أهل البدع وخاصة الرؤوس الذين يحملون أنواع الشبهات ، أما العوام والبسطاء فما أقربهم من الحق ، قرييون جداً من الحق ، وكلمات قليلة تكفيهم في الرجوع إلى الحق والعودة إليه .
والقصص في هذا عبر التاريخ في عودة عدد من المبتدعة ممن وقعوا في البدعة القصص في ذلك كثير ، يعودون أفراداً ويعودون أيضاً جماعات؛ مثل رجوع أربعة آلاف من الخوارج بعد المناظرة التي كانت بين ابن عباس وبين الخوارج .
وأيضاً من تلوثوا بهذه الأفكار في زماننا وصلت إليهم كلمة أكابر أهل العلم وكتب الله ﷻ لهم هداية فتابوا وألقوا أسلحتهم ورجعوا إلى الحق والهدى بمنّ الله تبارك وتعالى وفضله .

هنا عندما يقرأ الإنسان هذا الحديث ((إن الله احتجز التوبة عن صاحب البدعة)) والله إن هذا الحديث يجلب لقلب العاقل خوفاً أن يدخل في هوى من الأهواء ثم يتجارى به هذا الهوى إلى أن يتغلغل في نفسه ويتمكن منه ويدخل في كل عرق ومفصل منه ثم لا يعود إلى الحق والهدى ، يمشي في هذه الحياة يرى المعروف منكراً والمنكر معروفاً ، والسنة بدعة والبدعة سنة ، فهذا الحديث يجلب للقلب خوفاً من البدع والضلالات والأهواء ، ويجلب له أيضاً انكساراً وذلاً بين يدي الله ﷻ أن يعصمه وأن يحميه وأن يسلمه وأن يقيه من هذه البدع وغوائلها وجنباياتها على أصحابها وأربابها ، يسأل الله ﷻ أن يعيده من ذلك ، ولهذا صح في الدعاء عن النبي ﷺ أنه كان يقول ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مُنْكَرَاتِ الْأَخْلَاقِ، وَالْأَعْمَالِ، وَالْأَهْوَاءِ، وَالْأَدْوَاءِ)) . والهوى الذي هو البدع شأنه خطير على قلب الإنسان إذا دخل على القلب ، وهو أخطر على الإنسان بمراحل كثيرة من المعصية ؛ المعصية مع خطورتها أمرها أهون ، لكن البدعة شر مستطير وفساد عريض إذا دخل فيه الإنسان، فهذا الحديث يخيف العاقل من البدع .

ثم هنا إذا وجد الخوف في قلب الإنسان من البدعة ما الذي عليه أن يفعله ؟ ثمة أمور عديدة هنا ينبغي أن يسلكها من خاف على نفسه البدعة :

■ الأمر الأول : أن يكثّر من الالتجاء إلى الله ﷻ والإلحاح إليه ﷻ أن يهديه صراطه المستقيم ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ (٦) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿ [الفاتحة: ٦-٧] ، يسأل الله الهداية كما في دعاء الفاتحة ويتعوذ بالله ﷻ من الضلال كما في أدعية كثيرة عن رسولنا عليه الصلاة والسلام ؛ ومنها ما ثبت في الصحيحين أنه ﷺ كان يقول في دعائه: ((اللَّهُمَّ لَكَ أَسْلَمْتُ وَبِكَ آمَنْتُ وَعَلَيْكَ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْكَ أَنَبْتُ وَبِكَ خَاصَمْتُ ، أَعُوذُ بِعِزَّتِكَ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ أَنْ تُضِلَّنِي ، أَنْتَ الْحَيُّ الَّذِي لَا يَمُوتُ ، وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ يَمُوتُونَ)) ، الشاهد قوله «أَنْ تُضِلَّنِي» ؛ يتعوذ بالله ﷻ من الضلال . بل كان عليه الصلاة والسلام في كل مرة

يخرج من بيته يقول: ((اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَضِلَّ أَوْ أُضَلَّ أَوْ أَزِلَّ أَوْ أُزَلَ أَوْ أُظْلِمَ أَوْ أُظْلَمَ أَوْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ)).

■ الأمر الثاني : أن يعظم السنة في قلبه وأن يكون لها حرمة في نفسه ، وإذا بلغه كلام الله وكلام رسوله ﷺ لا يقدّم عليه قول أحد كائناً من كان مهما علا قدره وعلت منزلته ، إذا كان ابن عباس رضي الله عنهما قال في مسألة من مسائل الفروع والمفاضلة بين الأنسك : «يُوشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ؛ أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ!!» ؛ فكيف بمن يردّ السنة الصحيحة الصريحة ويقبل البدعة التي ما أنزل الله ﷻ بها من سلطان !! والإمام أحمد رحمه الله يقول: «عجبت من قوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي فلان وفلان ، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]». فالأمر الثاني أن يعظم الإنسان السنة وأن يؤمّرها على نفسه ، وقد قال أهل العلم قديماً : «مَنْ أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ نَطَقَ بِالْحِكْمَةِ»، وقال الإمام مالك رحمه الله : «السنة سفينة نوح من ركبها نجا ومن تركها غرق وهلك». فيتعوذ بالله ﷻ من البدع ويعظم السنة ويجاهد نفسه على لزومها علماً وتعلماً وعملاً وتعليماً .

■ الأمر الثالث : أن يحترم العلماء الذين هم دعاة للسنة وهداة إليها ، وأن يعرف أقدارهم ، وأن يحذر أشد الحذر من انتقاصهم أو سماع انتقاصهم ؛ لأن هذا من الحوائل والحُجب التي توضع بين الناس وبين قبول الحق والهدى: الوقعة في حملة السنة ودعاة الحق والهدى ، فهذا أمر ينبغي أن يتنبّه له الإنسان .

■ الأمر الرابع : أن يحذر من مجالسة أهل البدع ، قال الحسن البصري رحمه الله : «ليس للمرء أن يجلس مع من شاء» ، وقال بعض السلف : «من فقه الرجل مأكله ومشربه وممشاه» ، وأعظم من ذلك قول النبي ﷺ فيما صح عنه في سنن أبي داود وغيره أنه قال : ((الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ؛ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ)) وكانوا يقولون : «اعْتَبِرُوا النَّاسَ بِأَحْدَانِهِمْ» يعني انظر إلى جليس الشخص تعرف توجهه وعقيدته . فيحذر الإنسان أشد الحذر من مجالسة أهل البدع ودعاة البدعة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: ((إِنَّ أَحْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَيْمَةَ الْمُضِلِّينَ)) ؛ أي دعاة الضلال ودعاة الباطل ، فإذا كان النبي ﷺ يخاف على أمته من هؤلاء فكيف يجالسهم الإنسان ويسمع إليهم!! .

■ الأمر الخامس : وهو أن لا يقرأ كل كتاب ؛ وإنما يقرأ الكتب التي بُنيت على السنة وأُسست على الحق والهدى، أما الكتب التي أقيمت على الفكر وعلى العقول وعلى الأهواء وعلى الآراء فكل هذه يحذر منها الإنسان ، لأنه قد يقرأ فيها فتجره عبارة منمقة أو كلمة مزوقة وتشده إلى الضلال والبدعة .

■ الأمر السادس : وهو ما استجدّ في زماننا هذا من وسائل جرّت إلى الناس شبهات كثيرة وهي : القنوات والشبكة العنكبوتية ، بعض الشباب يجلس أمامها ومن باب حب الفضول وحب الاستطلاع يدخل في مواقع

أهل البدع ويقول ننظر ماذا عندهم وماذا يقولون؟ فيسمع لهذا ويسمع لذاك حتى يُشرب قلبه البدعة - والعياذ بالله - ، وإذا كان الأئمة الأكابر يوصون تلامذتهم المتميزين في العلم والطلب والمتأهلين للرد على أهل البدع بعدم التعمق في النظر إلى البدعة عند الرد عليها ، مثل تلك الوصية العظيمة التي أوصى بها شيخ الإسلام تلميذه ابن القيم ، ويقول ابن القيم : «نفعني الله بهذه الوصية نفعاً عظيماً ؛ قال لي : اجعل قلبك للشبهة مثل المرأة ولا يكن قلبك للشبهة مثل الاسفنجة » ؛ المرأة تعكس الشيء مباشرة ، أما الاسفنجة فهي تشرب وتمتص . فلا يمتص الإنسان الشبهة ويمكّنها من قلبه ، إذا كان في مقام الرد ، أما إذا كان ليس أهلاً للرد فلا ينظر أصلاً ، ونظرة وجلوسه وسماعه وهو ليس من أهل الرد على البدع مخاطرة بدينه ، وقد قال السلف رحمهم الله : «إن كنت مخاطراً بشيء فلا تخاطر بدينك» . ومع ما تقدم كله يقول أحد أهل العلم : «ليس العجب ممن هلك كيف هلك ، ولكن العجب ممن نجا كيف نجا» ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص:٢٤] ، والتوفيق بيد الله ﷻ فهو الموفق وهو الهادي إلى سواء السبيل .

ونسأله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلاء أن يهدينا إليه جميعاً صراطاً مستقيماً ، وأن يثبتنا على الحق والهدى ، وأن يعيذنا من البدع والأهواء ، وأن يصلح لنا شأننا كله؛ إنه تبارك وتعالى سميع الدعاء ، وهو أهل الرجاء ، وهو حسبنا ونعم الوكيل .